ثياب الإمبراطور

قد يدهشك كما يدهشني أحيانا شهرة بعض الكتاب، أو المفكرين، أو الفنانين ، أو حصول بعض الأشخاص فجأة على مناصب رفيعة ، أو ذيوع بعض النصوص الإبداعية ، أو الأعمال الفنية ، فتحاول فهم ما يحدث، أو ترغب في معرفة الأسباب التي جعلت ذلك الكاتب مشهورا، أو تلك الكاتبة تحظى بمزيد من الأضواء ، وعلى أي أساس كُتبت أسماؤهم في سجل الخالدين ، وكيف أصبحوا ملء السمع والبصر، وإذا كنت ممن يكتفي بظواهر الأشياء، فإنك قد ترد ذلك إلى جودة إنتاجهم، وبراعة ما أبدعوا، وإلى الإضافات العظيمة التي قدموها للبشرية ، ثم تمضي في حياتك متحسرا على حظك العاثر الذي لم يجعلك ضمن أولئك المشهورين .

مضت الأيام، ولازلت أتذكر كيف أن أحد أساتذتنا في المرحلة الجامعية، كانت تأخذه الحماسة، ويستبد به التعصب ، حين يمس النقاش وطنه، فيرد على مشاكسة بعض الطلاب بقوله :" اللي يسب مصر ناقص الإيمان "، وكدتُ أصدقه في ذلك الوقت وأتفقد إيماني ، وفي مرحلة الدراسات العليا كان يتبجح أحد أساتذتنا الوطنيين ممن أتقنوا رطانة الغرب بقوله : " الدراسات العليا إنما هي للنخبة " ، وقد صدقه بعض الزملاء المساكين وذهبوا إلى منازلهم .

وقبل سنوات حدثت فضيحة أدبية، ولكنها مرت بهدوء كما تمر سحب الصيف ، فقد كانت فرنسا في ذلك الوقت تحتفل بشاعرها العظيم (رامبو)، فنشطت دور النشر، ووسائل الإعلام ومن خلفهم النقاد ، للاحتفال بهذه المناسبة لإعداد ملاحق، وإجراء تحقيقات، أو إصدار كتب، أو دراسات عن هذا الشاعر العظيم الذي حقق الشهرة في ست سنوات هي مرحلة إنتاجه قبل أن يأوي إلى الصمت، وكل هذا لا غرابة فيه، وقد تفتش في ذاكرتك وتجد بعض الأحداث المماثلة أيضاً.

ولكن أحد الذين نجوا من بريق الشهرة، حاول أن يختبر الحقيقة على طريقة كارل بوبر، فقام بإرسال مجموعة من أشعار الشاعر العظيم إلى أهم دور النشر في فرنسا (جاليمار، وفلاماريون)، ولكنه غيَّر في قوانين اللعبة، فكتب عليها اسمه بدل اسم الشاعر، فجاءت الفضيحة بأن ردت دور النشر الشهيرة بأن هذه الأشعار لا ترقى إلى مستوى النشر، وأنها لا تتجاوز محاولات شاعر مبتدئ، وهذه الحادثة لا أظنها غريبة أيضاً ، ولها ما يماثلها في التراث العربي ، وإن كان في سياق آخر، وهو موقف النقاد القدماء من شعر المولدين ، ولعلنا نتذكر تلك المقولة التي تنسب إلى أبي عمرو بن العلاء : "لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت أن آمر فتياننا بروايته."

ثمة أكاذيب وموجات يروج لها بطرق متعددة، وتمتلئ بها صفحات التاريخ ، وتدعم بأدلة عبثية، لها شكل الحقيقة المنطقية ، تجد ذلك في كل مكان وزمان، وفي كل مجال أو ميدان، من كذبة السريالية في الفن التشكيلي، إلى أدعياء اللا رواية إلى عبث الوجودية في الفكر إلى موجات اللامعقول والفنتازيا ، إلى بعض الحروب التي تشتعل بلا أسباب واضحة، والشعارات التي ترفرف بلا هدف، أو بروز بعض الشخصيات المهرجة، أو بعض الحوادث، كموت بعض المشاهير بطريقة تراجيدية غامضة ، أو اختفاء بعض الطائرات، أو رواج بعض الموضات،

وخلف كل هذه الأكاذيب مستفيد يسعى إلى الكسب أيًّا كان نوعه، أو غاية يرجو تحقيقها، وقد يكون هذا المستفيد فردا، أو مجموعة، أو هيئة أو منظمة ، أو حكومة ، وحين نستبعد نظرية المؤامرة التي قد تتبادر إلى ذهنك وأنت تقرأ هذه السطور، تأمل فيما حولك ستجد أكاذيب براقة تتراءى في أفقك، وعليك أن تتأملها وتحسن الحكم عليها، ولا تكن من الغافلين المدعين الذين يحدقون عيونهم أمام بعض اللوحات الفنية، أو النصوص الإبداعية ، أو بعض الكتب التي لا تساوي ورقها وحبرها، أو يعجبون بمن يشبه فقاعات الصابون، لئلا ينتهي بك المطاف إلى الكذب على نفسك وعلى من حولك، إما خوفا من تهمة الجهل، وإما إذعانا لسطوة بريق الشهرة ، فتنقاد إلى مصيدة الجماهير، فليست كل شهرة دليل جودة ، والتعصب دوما يعمي البصيرة عن رؤية الحقيقة عارية، كعري الإمبراطور أمام صرخة الطفل الصادقة.

وثياب الإمبراطور قصة رمزية للكاتب الدنماركي هانس كريستيان أندرسون عبقري الحكايات الأسطورية، وقد اتخذها فوزي كريم عنوانا لكتابٍ صدر له قبل سنوات، ويعدُّ من أعمق الدراسات التي كشفت سوءة الشعر العربي الحديث، وادعاءاته الزائفة، وتصديقه أكاذيب العبث واللامعقول، التي ظل يخدع بها القارئ العربي ، حتى فسدت ذائقته، فأصبحت لا تستطيب سوى الجيف، ولعلنا نرى في مستقبل الأيام باحثا عميقا يكشف لنا أيضاً سوءة السرد العربي الحديث، ويفضح هرطقات المهرجين من الساردين، ويفضخ ورم الدجالين من النقاد.